مجلة الجزيرة لعلوم الوحي مجلد (1) العدد (1) 1440هـ - 2019م

تنزّلات القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
الدّلالات والتّجلّيات

د. عمر إسماعيل عبد الله[1]

الملخص

هدفت الدّراسة في هذا البحث إلى استجلاء ما كان يعتري النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) وقت نزول القرآن عليه من مظاهر الشّدّة والكرب الّتي تأكّد بها ما وصف القرآن به من ثقل تجلّى به جانب من جوانب عظمة القرآن، تلك العظمة الّتي نطقت بها كثير من الآيات وأشارت إليها كثير من الأحاديث، وإلى الوقوف على تجلّيات القرآن وتأثيراته في حياة الفرد والجماعة، وذلك بالوقوف على دلالات ما للقرآن من ثقل أدّى إلى تداعيات عاشها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما عاشها معه أصحابه رضوان الله عليهم، حيث كان يتفاعل النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) ومن حوله عند تنزّلات ذلك القول عليه تفاعلًا ملحوظًا ومن ثمّ يتأثّرون به قبولاً وعملاً، ممّا أخرج مجتمعاً متميّزاً في جميع جوانب حياته، اتبعت الدّراسة المنهج الاستقرائيّ التّحليلي؛ فقد قصد الباحث في هذه الدّراسة أخذ تلك الحقائق والدّلالات والتجلّيات من نصوص القرآن والسنّة ملفتاً لأهميةّ أخذ هذه الحقائق من هذه النّصوص الثّابتة ، وخلصت الدّراسة لعدّة نتائج منها : أنّ الثقل الذي وصف به القرآن ثقل مبنًى ومعنًى معًا، وأن هذا الثقل يعتبر عنصراً من عناصر عظمته ، وأنّ هذا القرآن عند تلقّيه لعظمه كان عالم الملائكة الّذين يعتبرون جزءًا من العالم العلويّ يستشعر ثقله. أوصى الباحث بعدّة توصيات منها: ضرورة التعامل مع نصوص الوحي بفهم وعمق أخذاً من التّراث الإسلامي النّقي الصّحيح، أهمّية تناول الباحثين في مجال دراسات علوم الوحي للمشكلات الّتي يعيشها المجتمع لمعالجتها من خلال نصوص الوحي، لثبوت نجاعتها. حتميّة التّأسّي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الميامين في الاعتصام والاستمساك بالقرآن وجعله هاديًا في كلّ قضيّة .

---

[1] استاذ مساعد – المركز القرآني – جامعة الجزيرة

مقدّمة:

الحمد لله رب العالمين أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا وجعله قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لّدنه ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرًا حسنًا .

والصّلاة والسّلام على من أيّه به الله متزمّلًا ، آمرًا إيّاه بترتيل كتابه ترتيلًا , وعلى آله وصحابته الّذين كان يُسمع للقرآن من بيوتهم دويٌّ كدويّ النحل تخشّعًا وتحبيرًا .

إنّ من المسلّم به أنّ كتاب الله تعالى يعتبر الدّستور المنظم لحياة البشريّة جمعاء، وأنّ كل من أراد الهدى والنّجاة والعيش الكريم ليس عليه إلا أن يتمسّك به، لأنّه نزل من عند الخالق العالم الّذي يعلم ما يصلح خلقه جلَ في علاه ، ولأنّه كلامه كان له من المكانة ما لمنزله إذ إنّه صفته ــ ولهذا اتّصف بكل صفات الجلال والجمال والعظمة وكان فيه من الشّفاء والرّحمة ما فيه، وكان فيه من صفة الصّلاح والإصلاح الشّأو البعيد ، وذلك لمن تمسّك به وجعله في حياته واقعًا معيشًا، ولذلك نجد أن الصّحابة أخبروا أنّهم كانوا حريصين على أخذ ما نزل مباشرةً ليتفاعلوا به فهمًا وحفظًا وعملًا قبل مجاوزته لما بعده وقد كان في تنزّلاته تلك الّتي شاهدها الصّحابة وشاهدوا ملابساتها وما كان يعتري النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) وقت تلك التّنزّلات من شدّة تترجمت في معالجته إيّاه متغيّرًا في أحواله نتيجة ما يعتريه من الحمّى واحمرار الوجه وتربّده وتسارع نفسه الّذي يظهر في غطيطه –كلّ ذلك كان له كبير ألأثر على استشعار الصّحابة لعظم هذا القرآن وضرورة التّعاطي معه أخذًا وعملًا ؛ ممّا

غيّر في سلوكهم للأحسن والأوفق ، فأصبحوا بذلك ساسة الأمم وقادة العالم ممّا أهّلهم لخلافة الله في أرضه وإقامة العدل بين خلقه ، فعاش النّاس بذلك في رغدٍ من العيش وأمنٍ من كلّ ما يخشونه ، ولعمري ذلك ما تنشده الحضارات وتسعى له الأمم في كلّ زمان ومكان ، وهو عين ما امتنّ الله به على قريش إذ خاطبهم قائلًا : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[1]

وإنّه من الواجب الضروري إيقاظ الأمّة وتنبيهها لعظم القرآن والتّأكيد على حتميّة الأخذ به لإصلاح الفاسد في كل جوانب حياتها، واسترداد عظمتها وإخراجها من غثائيّتها وانحطاطها.

لذا كان من الأهمّيّة التّنيه والوقوف على الحقائق التّالية:

1 – ضرورة التّشرّف بخدمة الدّراسات القرآنية لا سيّما في مجال التّفسير الموضوعي الّذي يعتبر من الدّراسات التّخصّصية الّتي تعالج مشكلات المجتمعات ، لا سيّما وأنّ العصر صار عصر التّخصّصيّة .

2 – إبراز ما للقرآن من عظمة من خلال ما يتصّف به من صفات قدسيّة تجسّدت في تنزّلاته على الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم).

3 – تقديم الحلول القرآنيّة الّتي تعالج كل إخفاق في حياة الأمّة بصورة مبسّطة.

حيث اقتضت الدّراسة أن تكون من مقدّمة وخمسة مباحث مبتدئًا بالملخص وصولًا إلى الخاتمة المشتملة على النّتائج والتّوصيات ، بعدها قائمة بالمصادر والمراجع على النحو التّالي :

---

1 سورة قريش : الآيات : 3 – 4 .

المقدّمة

التّلقّي عن الله تعالى

ظاهرة الوحي

ثقل الوحي

أثر الوحي على الملائكة

ثقل القول وشدّة الوحي "الدّلالات والتّجلّيات"

تمهيد : التّلقّي عن الله عزّ وجلّ :

التلقي عن الله تعالى، حتى وإن كان عن طريق الملك، يعتبر أمر خارج عن معهود الناس، وبالرغم من أنه أمر عجيب، لكنه حدث مرات ومرّات وقد لاحظه الكثيرون، ورأوا مظاهره رأي العين، وتلقّوا ثمرته، وهي في هذه الأمّة قرآن تلوه واستظهروه وكتبوه، وعلّموه من جاء بعدهم ، وتناقلته الأمة خلال عصورها.

فهي بذلك إذن تعدّ حالة معروفة للصحابة، ولقد كانت تتسم لحظاتها بالسكينة والوقار، وكان الصحابة يطرقون خلالها بانتظار سماع الوحي الجديد، فلقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، (رضي الله عنه)، أنه قال: « وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)حتى ينقضي الوحي » .[1]

إلا أنّه ليس من شأن البشر التلقي عن(الله تعالى) مباشرة، وقد أكد القرآن ذلك، وبيّن السّبل التي يبلّغ الله بها كلماته إلى المصطفين من عباده، فقال:{وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }.[2][3]

فالأمر إذن يحتاج الى أناس بمواصفات خاصة تأهلهم لمثل هذا التّلقي الخاص، لأنّ ما يلقى إليهم أمر خاص من جهة لها خصوصيّتها القدسيّة، ولذلك كان الواسطة النّاقلة اتّسمت أيضًا بصفات خاصّة، فقد جاء من صفاتها قوله تعالى:

1مسلم : صحيح مسلم - باب فتح مكّة , حديث رقم (1780) , ج3 ، ص : 1405 .
2سورة الشّورى , الآية : 51 .
3انظر : أبو عبد الله غانم بن قدوري بن حمد بن صالح، آل موسى فَرَج الناصري التكريتي - محاضرات في علوم القرآن - الناشر: دار عمار – عمان , ط1، 1423 هـ - 2003 م , ص : 22 ، 26 .

{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}،[1]{ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}.[2]{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}.[3]

وإنّ ممّا يؤهّل للارتقاء لمثل هذا التّلقّي اصطفاء الله المرء بالنّبوّة، وهذا الارتقاء كما وصفه غانم قدوري بقوله : ذلك الارتقاء الّذي تنكشف معه حجب الغيب، ويتصل الإنسان فيه بعالم الروح – أمر يستدعي كثيرًا من الإعداد النفسي الذي ينقل الإنسان إلى ذلك المقام من غير أن يصاب بانهيار نفسي أو اضطراب عقلي، وهذا عين ما يلمسه المتأمل في جوانب ذلك الإعداد الإلهي في حياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) , تلك الجوانب المتمثلة بأمور عِدَة منها :

1 – ما رآه وسمعه من الضوء والصوت غير المألوف له من قبل .

2 – الرؤيا الصادقة التي صارت تتكرر وتتحقق مما يخرج عن العادة .

3 – الميل نحو الخلوة ، وتفرغه لها في أعلى جبل حراء، وما توحيه تلك الخلوة في ليلها الساجي الساكن ونهارها الضاحي الطويل من شعور .

4 – ما لقيه (صلى الله عليه وسلم) من الضم الشديد من الملك في اللقاء الأول، لإعداده لتحمل الثقل المصاحب لإيحاء القرآن إليه.[4]

وذلك الإعداد هو ما أشار إليه ابن خلدون حيث أثبت: أنّ فوق العالم البشريّ عالم روحانيّ، هو عالم الملائكة، وليتسنّى للمرء الاتّصال بذلك العالم لا بدّ أن يكون للنفس الإنسانيّة استعداد للانسلاخ من البشريّة إلى الملكيّة، لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات، وفي لمحة من اللّمحات , ثمّ تراجع بشريّتها

1سورة النّجم , الآيات : 5-6 .
2سورة التكوير , الآيات : 30 – 21 ..
3سورة الشّعراء , الآيات : 193 - 194 .
4انظر :غانم قدوري - محاضرات في علوم القرآن – ص : 19 .

وقد تلقّت في عالم الملكيّة ما كلّفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر. وهذا هو معنى الوحي[1] . كما جاء في البرهان أن رسول الله(صلى الله عليه وسلم)عند التنزيل ينخلع من صورة البشرية إلى صورة الملائكة.[2]

ظاهرة الوحي :

إنّ ظاهرة الوحي بحق ملفتة للنظر داعية للاهتمام ، وهي ليست صورة مادية يحاكمها العقل ، ويرتضيها أو يرفضها ؛ لأنها خارجة عن نطاق المدركات المادّيّة ، غير أنّ العقل السليم لا يمكنه أن يرفض هذه الظاهرة ، لإدراكه حجم قدراته والّتي يتوصل بها مع قصورها إلى التسليم بما هو خارج عن نطاقها الحسي, والحس لا يمكنه أن يحيط بالكون ، لأنّه محكوم بدائرة ضيقة.[3]

وإنّ طريقة معرفة حقيقة هذه الظاهرة ليس سبيله الرجوع إلى دلالات العقول، كما يقول عبد الله درّاز : وإنما سبيله الرجوع إلى النقل الصحيح .[4]

ويقول : إن نظرة واحدة نلقيها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفاً , ولم يمتلك لما لاحظه على هذه الظّاهرة من مقدّمات ونتائج خيّرةً إلّا أن وصفها بأنّها قوة , فيقول: هي قوة خيرة معصومة،

1انظر : عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - تحقيق : خليل شحادة , الناشر : دار الفكر، بيروت , ط2 1408 هـ - 1988 م , ص : 598 .

2أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي - البرهان في علوم القرآن - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم , الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه , ط1، 1376 هـ - 1957 م , ج1 , ص : 229 .

3انظر: محمد فاروق النبهان - المدخل إلى علوم القرآن الكريم - الناشر: دار عالم القرآن – حلب،ط1، 1426 هـ - 2005 م . ص : 30 .

4انظر : محمد بن عبد الله دراز - النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم - الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع ط : 1426هـ- 2005م , ص : 103 .

لأنها لا توحي إلا الحق ولا تأمر إلا بالرشد .. ذلك هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدي إليه البحث العقلي المستقيم .[1]

مستدلًّا على ذلك بقوله : إن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه ، وحد محدود تقف عنده ولا تتجاوزه . فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة ، ولم يكن مركوزًا في غريزة النفس ، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول ، إما بسرعة كما في الحدس , وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة , وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناله يد العقل بحال ، وإنما سبيله الإلهام أو النقل عمن جاءه ذلك الإلهام.[2]

إنّما يكفي العقل إذًا في مجال الوحي أن يتوجّه لدراسة الظاهرة من خلال ما يرى منها، مستصحبًا المعرفة الواسعة لشخصية الرسل – عليهم السلام – وسيرتهم وحياتهم وسلوكهم وأفكارهم، ومثل هؤلاء لا يمكن إلا أن تقع الثقة بما يقولون، وأن يقع الاطمئنان لما يدعون.[3]

ولا يمكن بحال تصور الوحي الذي كان ينزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) مجرد مشاعر وأحاسيس وتخيلات وأوهام أدت إليها عزلته الطويلة في غار حراء الموحش، وانصرافه عن الحياة الدنيا وتفرغه للعبادة وطاعة الله، واستغراقه في التأمل في مظاهر الحياة، ولو كان الوحي كذلك لما استطاع محمد في تلك اللحظات الشديدة المرهقة الثقيلة أن يتلو كلامًا في أعلى درجات

1المصدر نفسه , ص : 102 .
2المصدر السّابق , ص : 67 .
3انظر : النبهان - المدخل إلى علوم القرآن الكريم ، ص : 30 .

الفصاحة وأسمى أساليب البيان، متضمناً حكمًا عميقة، وحافلًا بأخبار الأمم السابقة ، ومتكاملًا في معانيه وأفكاره.[1]

كما لا يمكن وصف تلك الحالة الّتي تعتريه عند نزول الوحي أنها حالة مرضيّة فإنّ المباينة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفرُّ فيها الوجوه، وتبرد الأطراف، وتصطك الأسنان، وتتكشف بها العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيَّم ظلام الجهل– لمن الوضوح بمكان؛ لأنها كانت كما ثبت لكلّ ناظر مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، وارتفاع في درجة الحرارة، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته، وتتضاءل الأنوار عند طلعته.[2]

ولقد نفى مالك بن نبي في معرض تحليله لتلك الظّاهرة أن تكون تلك العوارض الّتي تصاحب نزول الوحي تشنجات مرضية اعترته بحالة من الهلوسة ، حيث قال : تعجل بعض النقاد حين ألموا بهذه الدلائل النفسية فعدّوها أعراضاً للتشنج ، رادًّا عليهم بأنّ الأعراض العضوية نفسها ليست خاصة بحالة التشنج التي تحدث شللًا ارتعاشياً (إن صح التعبير) عند الفرد المحروم مؤقتاً من قواه العقلية والجسمية.، لأنّنا إذا نظرنا إلى حالة النبي ، نجد أن الوجه وحده هو الذي يحتقن ، بينما يتمتع بحالة عادية ، وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية ، ليستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة نفسها ، على حين يمَحي وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة ، فالحالة بناء على هذه

1انظر : المصدر نفسه - ص : 39 , 40 .
2انظر : درّاز - النّبأ العظيم - ص : 101 .

الملاحظات ليست حالة مرض كالتشنج ، كما وأنّ تلك الأعراض الجسمية التي رويت عن النبي لا تظهر إلا اللحظة التي تعتريه فيها الظاهرة القرآنية ، وفيها وحدها ، أي في اللحظة الخاطفة للوحي.[1]

كما لا يمكن أن تكون من قبيل الاختلاط و (الهلوسة)، فقد كانت الظاهرة في حالتها الأولى، مرئية مسموعة، إضافة إلى ما جاء بعد ذلك من الأحداث التاريخية التي استغرقت ثلاثةً وعشرين عاماً؛ فالاختلاط العقلي الذي من هذا النوع إنما يحدث في هوامش النوم, في حالتي غشيان النوم الذات الواعية، أي بين اليقظة والنوم، أو عندما تخرج هذه الذات من النوم، أي بين النوم واليقظة، ولقد قرر علم النفس العلاجي أن الحالتين كلتيهما لا تصيب الأشخاص الأسوياء – كما هو شأن النبي – لوجود سبب حسي، هو ترتيل أصوات مسموعة، وقد تكرر السبب الحسي في الحالات الثّلاثة الأولى لنزول الوحي.[2]

وممّا يؤكّد أنّ البعد شاسع بينها وبين عارض السبات الطبيعي أنها كانت تعروه[3] قائمًا أو قاعدًا، وسائرًا أو راكبًا، وبكرةً أو عشيًّا، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة، وتنقضي في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان، وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التي لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم . وبالإجمال كانت حالًا تباين

1انظر : مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي - الظاهرة القرآنية - تحقيق (إشراف ندوة مالك بن نبي) الناشر : دار الفكر - دمشق سورية , ط4 ، 1420 هـ =2000م . ص : 153 – 154 .
2انظر : المصدر نفسه - ص : 161 .
3عراه أمرٌ يَعْرُوه عَرْواً إذا غشيه وأصابه. معجم العين : 232/2

حال النائم في أوضاعها وأوقاتها وأشكالها وجملة مظاهرها , فهي إذاً عارض غير عادي.[1]

ومن الأدّلة على كونها غير اختيارية ؛ أنّها لو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه, فكان لا يشاء يومًا أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاده في تحضيره , ولقد ثبت أنه كثير ما التمسه في أشد أوقات الحاجة إليه، وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله.[2]

وإنّ تعبير الله –سبحانه– عن إيحائه بالقرآن إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)بالإلقاء ليشعر بأنه يلقى إليه على غير ترقب منه(صلى الله عليه وسلم)، بل ينزل إليه في الوقت الذي يريده سبحانه.[3] {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}.[4]

فإذا ثبت أنّ التّكلّف والتّصنّع فيه غير وارد أو حتّى القدرة على استدعائه، أو قدرة أحد من البشر على التّأثير فيه بشيء، حتّى من قبل الشّخص الّذي يتنزّل عليه ذلك الوحي فهذا يؤكّد على مصدره العلوي. يقول تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ}،[5] ففي الإتقان أنّه : أجاب عن التبديل دون الاختراع . قال الزمخشري : لأن التبديل

1انظر : درّاز - النّبأ العظيم - ص : 101 .
2المصدر السّابق , ص : 101.
3محمد سيد طنطاوي - التفسير الوسيط للقرآن الكريم - الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة – القاهرة , ط1 , ج15 ، ص : 157 .
4سورة مريم : الأية : 64 .
5سورة يونس : الأية : 15 .

في إمكان البشر دون الاختراع فطوى ذكره للتنبيه على أنه سؤال محال . وقال غيره : التبديل أسهل من الاختراع وقد نفي إمكانه ، فالاختراع أولى.[1]

ونجد أنّ الوحي الذي تنزل على سيدنا محمد (صلّى الله عليه وسلّم) لا يختلف عن الوحي الذي تنزل على الأنبياء السابقين من حيث الظاهرة التي يمثلها الوحي، وإن اختلفت وسائل التبليغ وكيفياته.[2]

قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً * رُسُلًا * مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}[3]

ولقد جاءت كلمة الوحي أكثر من سبعين مرة في القرآن الكريم، بألفاظ مختلفة (أوحى)، (أوحيت)، (أوحينا)، (يوحي) ، (نوحيه)، (نوحيها)، (ليوحون)، (أوحي)، (وحي)، (وحيه)، (وحينا)، ومعظم المعاني القرآنية معبرة عن الأمر الإلهي للرسل، وأكثر ما استعملت في القرآن كلمة (أوحينا) .

والاستعمال القرآني للفظة (الوحي) جعل هذه الكلمة ذات مدلول خاص يعبر عن أمر الله للأنبياء في بعض الأحيان، ويعبر عما يتنزل على الأنبياء من كلام الله بواسطة جبريل، وفي جميع الأحوال لا تطلق كلمة (الوحي) في اللغة العربية إلا في هذا الإطار، وإذا استعملت في بعض الأحيان في المعنى

1عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي - الإتقان في علوم القرآن - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب , ط : 1394هـ/ 1974 م , ج2 , ص : 371 .
2انظر : النبهان - المدخل إلى علوم القرآن الكريم ، ص : 30 .
3سورة النّساء ،الآيات : 163 - 165 .

اللغوي فإن هذا الاستعمال قليل، وغالباً ما يكون في صيغة الفعل التي تعبر عن المعنى اللغوي الدال على الإشارة الخفية الدالة على معنى معين.

وتتعدد معاني (الوحي) في القرآن، بحسب الآيات، فأحياناً تفيد معنى الإخبار كقوله تعالى: {فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِين،[1] وأحياناً تفيد الأمر كقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ}،[2]وأحياناً تفيد معنى الإنزال كقوله تعالى: {وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها}[3][4]

ثقل الوحي

الوحي في أي مرتبة من مراتبه أمر عظيم يقتضي من الإنسان المتلقّي أن يتجاوز حدود المادة وعالم الشهادة ليتصل بالملائكة وعالم الغيب، وذلك يقتضي من صاحبه – كما تقدّم – استعداداً يهيئه ـــــ الله تعالى ـــ في أولئك الأخيار الذين اصطفاهم من خلقه لهذه المنزلة ، إلا أنه بالرّغم من ذلك الإعداد وجدنا شدةً ومشقّةً وقت تلقّي ذلك الوحي ، فكثيرًا ما كان يحدث للنبي (صلى الله عليه وسلم) مشقة شديدة في التلقي من الملك، حتّى قال ابن خلدون: إنّ في حالة الوحي كلّها صعوبة على الجملة وشدّة قد أشار إليها القرآن في قوله تعالى: { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا }.[5] .وروت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): أن الحارث بن هشام سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلاً : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله (صلّى الله عليه وسلم): (أحياناً

1سورة إبراهيم، الآية: 13.
2سورة الأعراف، الآية : 117.
3سورة الشورى، الآية : 7.
4انظر: النبهان - المدخل إلى علوم القرآن الكريم - . ص : 33 , 34 , 35 .
5سورة المزّمّل الآية : 5 .

يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول). قالت عائشة (رضي الله عنها): (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عرقًا) ،[1][2]

وعند التّأمّل في: (وهو أشدّه عليّ) يستشفّ أنّ كلّ أنواعه فيها شدّةً لكنها تتفاوت، ففي فتح الباري أنّ هذه الجملة يفهم منها : أن الوحي كله شديد ولكن هذه الصفة أشده.[3]

وجاء أيضاً في كوثر المعاني: يفهم من "وهو أشده علي": أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها،[4] وفي الفيض: لمَّا كان في هذا النوع تسخيرٌ لباطنِهِ وانسلاخٌ عن بعض أوصافه، كان شديدًا من سائر أنواعه، وإن كان الوحيُ كلُّه شديدًا.[5]

وإنّه لجدير بالمرء أن يقف متسائلًا عن حقيقة هذه الشّدّة التي نطقت بها الأحاديث وذاك الثّقل الّذي جاء به التّنزيل وعن حكمته وأثره على الرّسول وعلى أمته وعلى مسيرتها عبر قرونها وأجيالها .

1البخاري : صحيح البخاري ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ، حديث رقم (2) ، ج1 ، ص : 6 .
2انظر : نور الدين محمد عتر الحلبي - علوم القرآن الكريم - الناشر : مطبعة الصباح – دمشق , ط1, 1414 هـ - 1993 م , ص : 19 . وانظر : ابن خلدون – ديوان المبتدأ والخبر – ص : 124 .
3أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - فتح الباري شرح صحيح البخاري - الناشر: دار المعرفة–
بيروت ، 1379ه ، ج1 ، ص : 30 .
4محمّد الخضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي - كوثر المعاني الدَراري في كَشفِ خبايا صحِيح البخاري – الناشر : مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط1 ، 1415 هـ - 1995 م ، ج1 ، ص : 197 .
5محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي - فيض الباري على صحيح البخاري - تحقيق : محمد بدر عالم الميرتهي ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط1 ، 1426 هـ - 2005 م ، ج1 ، ص : 95 .

والثابت أنّ القرآن كان ينزل على الرسول بطريقة "الوحي الجلي" وهو أشهر الأنواع وأكثرها وهو ما كان بواسطة أمين الله جبريل، يدل على هذا قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[1] وقوله سبحانه : {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}،[2]

ولأنّ الوحي اتصال بين جبريل عليه السلام وهو "مَلَك" وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم)وهو "بشر"، ولكون الحديث بين اثنين عربي وعجمي – مثلًا– يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، احتاج الأمر هنا إلى غلبة البشرية على الملك فيفهم البشر كلامه، أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على الملك تبليغه.[3]

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر –رحمه الله تعالى– حيث قال: "إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع ،وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني".[4]

وهذا إشارة إلى نوعي الوحي الّذين وردا في حديث الحارث .

وجاء في البرهان للزركشي والإتقان للسيوطي: أنّفي التنزيل طريقين: أحدهما: أن النبي (صلى الله عليه وسلم) انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه

1سورة الشّعراء : 192 – 195 .
2سورة النّحل : 102
3انظر : فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي - دراسات في علوم القرآن الكريم - الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ، ط12 ، 1424هـ - 2003م ، ص : 180 .
4ابن حجر - فتح الباري: ص : 28.

الرسول منه والأول أصعب الحالين [1]. وقد تقدم وصف ابن خلدون لها : بأنها انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية.[2]

بذلك يتقرّر أنّ مفارقة البشريّة إلى المدارك الملكيّة وتلقّي الكلام من روح القدس يحدث عنه شدّة من مفارقة الذّات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر وهذا هو معنى الغطّ الّذي عبّر به في مبدإ الوحي في قوله (فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ)[3] وكذا ثانية وثالثة.[4]

ولعلّ هذا كان فعلًا تحضيراً من الملقي كيما يتنبه له المتلقي ويطيق تحمّله لما لذلك المُلقى من جلال ومهابة، كيف لا وهو كلام الجليل في علاه، فإذا علمنا أنّ الله ــ عزّ وجلّ ــ مباين لخلقه لا يشبهه شيء،[5] تعيّن أن يكون القرآن على درجة من المهابة والجلال؛ لأنّه صفة من صفاته، فهو كلامه ــ عزّ في علاه ــ ، أنزله على عبده محمّد بواسطة عبده جبريل الّذي أتى في وصفه في معرض التّنزيل {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}،[6]{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}.[7]

ولا شكّ في أنّ وصفه بهذه الألفاظ الّتي تمثّل أعلى درجات القوّة والشدّة والمرّة[8]والمكانة وطاعة الملإ الأعلى من الملائكة له في هذا المقام بالذّات،

1انظر : لزركشي - البرهان في علوم القرآن : ج1 , ص : 229 . السيوطي - الإتقان: ج1 , ص : 58 .
2. ابن خلدون – المبتدأ والخبر – ج1 ، ص : 598 .
3صحيح البخاري : باب كيف كان صلى الله عليه وسلم حديث رقم : (3) ج1 ، ص : 7 .
4انظر : ابن خلدون – المبتدأ والخبر – ج1 ، ص :125.
5سورة الشّورى الأية : 11 .
6سورة النّجم , الآيات : 5-6 .
7سورة التكوير , الآيات : 30 – 21 .
8المِرّة : القوّة ، وأصل المِرّة : إحكام الفتل . تهذيب اللغة ج15 ص : 146 .

وأعني به مقام التّنزيل، لا شكّ بأنّ هذا يشي بعظم هذا الكلام المنزل وأنه لا يطيق حمله إلا من اتّصف بمثل هذه الصّفات من الملائكة .

ففي التفسير القرآني: من صفات جبريل أنه (ذو مرّة) أي جلد وصبر، وقدرة على حمل هذه الأمانة التي كلّف بحملها.. وإنها لأمانة ثقيلة أبت السماء والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها.[1]

وإذ ما اجتمعت وتكاملت عناصر القوّة في المُنَزّل وفي الّذي نزل به، كان من البداهة بمكان أن يعالج الرسول البشري مظاهر الشّدة والثّقل وقت نزوله عليه، كيف لا وقد ثبت بذلك قرآنًا يتلى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[2] بل ثبت أنّ ملائكة الملإ الأعلى الّتي هي عند ربها، الّذين وصفوا بأنّهم غلاظ شداد، يصعقون عند سماع الوحي من قبل العظيم ــ جلّ جلاله ــ ، فما بالك بالبشر، وإنّه لولا تقوية الله لهم لذلك التّحمل لما أطاقوه حسب بنيتهم وتكوينهم البشري . جاء في شرح الحديث المقتفى:(أنّ للنبوة أثقالاً ومؤنة لا يحملهما ولا يستطيع لها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله عز وجل).[3]

أثر الوحي على الملائكة:

روي عن أبن مسعود مرفوعاً: (إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئًا، فإذا فُزّع عن قلوبهم وسكن الصوت، عرفوا أنه الحق ونادوا): ﴿ ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾[4][5] قال ابن بطال أي : أذهب الفزع عن قلوبهم، قالوا

1عبد الكريم يونس الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة ، ج14، ص : 589 .
2سورة المزّمّل الآية : 5 .
3أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي - شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى - تحقيق : جمال عزون ، الناشر: مكتبة العمرين العلمية - الشارقة/ الإمارات ، ط1 ، 1420هـ /1999 م ، ج1 ، ص : 74 .
4سورة سبأ الآية : 23 .
5صحيح البخاري : باب : قول الله تعالى : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ، ج9 ، ص : 141 .

للذي فوقهم : ماذا قال ربكم ؟ فدل ذلك على أنهم سمعوا قولاً لم يفهموا معناه من أجل فزعهم، فقالوا : ماذا قال ربكم،[1] وفي فتح المنعم : (إذا تكلم الله بالوحي، في أي أمر من الأمور سمع حملة العرش، وملائكة كل سماء صوت العظمة والكبرياء، فيأخذهم انقباض وخوف، ويقعون مسبحين مصعوقين، كأنهم مغشي عليهم، فيفيق من لها أمر – جبريل أو ميكائيل أو عزرائيل أو غيرهم، فيتلقى أمر الله في كونه، ويُفزّع عن قلوب حملة العرش ومن يليهم، أي يزول الفزع عن قلوبهم، فيسأل حملة العرش الموحى إليه عما أوحي إليه : ماذا قال ربكم ؟ ويجيب الموحى إليهم : قال ربنا القول الحق)[2]

وقد ورد وصف وحي الله إلى الملائكة في السُّنة النبوية في أحاديث كثيرة منها حديث أبي هريرة في البخاري أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان) [3] وحديث النواس بن سمعان (رضي الله عنه)قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي ، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة – أو قال رعدة – شديدة خوفاً من الله ــ عز وجل ــ ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير

1ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك - شرح صحيح البخارى لابن بطال – تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض ، ط2 ، 1423هـ - 2003م ، ج10 ، ص : 492.
2موسى شاهين لاشين - فتح المنعم شرح صحيح مسلم - الناشر: دار الشروق ، ط1 ، 1423 هـ - 2002 م ، ج8 ، ص : 637 .
3صحيح البخاري : باب قوله (إلّا من استرق السّمع ...) حديث رقم : 4701) ج6 ، ص : 80 .

وفي الإتقان نقلًا عن تفسير علي بن سه، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)[1] للنيسابوري: قال جماعة من العلماء: نزل القرآن جملة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة فحفظه جبريل وغشي على أهل السموات من هيبة كلام الله، فمر بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق – يعني القرآن – وهو معنى قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوب﴾[2] فأتى به جبريل إلى بيت العزة فأملا على السفرة الكتبة يعني الملائكة وهو معنى قوله تعالى: ﴿بأيدي سفرة كرام بررة﴾[3][4]

وعلى علمنا بما تقدّم أنّ من أسباب معالجة النبيّ لشدّة الوحي انخلاعه من البشريّة إلى الملكية، فما بال الملائكة في خلقتهم الملكيّة، والّذين هم جزء من ذلك العالم الغيبي، والمهيئون لتلقي تلك الفيوضات الربّانيّة يحدث لهم من الرّهبة والصّعق لتنزّلات الوحي ما يحدث لهم، خاصّة إذا ما استصحبنا أنّهم في عبادة دائمة متصلة كما حكى عنهم خالقهم حيث يقول: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[5] وبأنّهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[6] فلماذا تعتريهم حالات الرّهبة تلك إن لّم يكن لذلك الوحي ذلك الأثر الرّهيب المهيب .

إذا كانوا على هذا الصفاء النوراني الذي خلقوا منه، وعلى تلك العبادة الدائبة والطاعة الدائمة ، فلم هذا الخوف ؟ ولم تلك الخشية ؟ ولك أن تتأمّل –إن

1رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ، ص : 144، والطبري في تفسيره ج22 ، ص : 91 ، والبيهقي في الأسماء والصفات ص : 203 .
2سورة سبأ الآية : 23 .
3سورة عبس الأية : 15 .
4انظر : السيوطي – الإتقان – ج1 ، ص : 158 .
5سورة الأنبياء الآية : 20 .
6سورة التّحريم الآية : 6 .

شئت– قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾،[1] ألا يكون مرجع هذا، هو أن الملائكة لقربهم من الله سبحانه وتعالى، ولكمال معرفتهم بماله سبحانه وتعالى من جلال وكمال – هم أكثر عباد الله ولاء لله ، وانقيادًا له ، وفناءً فيه .. فإنّ من كان بالله أعرف كان منه أخوف، ومن كان إلى الله أقرب كان لجلاله وسلطانه أرهب.! يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾[2]فالعلماء بالله، العارفون به، هم أكثر الناس خشية له، وولاء لذاته والملائكة يعلمون أكثر مما يعلم العالمون من جلال الله وسلطانه، وعظمته،[3] وكذا الأنبياء، واسمع لما قاله أعرف النّاس بالله حين خاطب أصحابه قائلًا : (أما والله، إني لأتقاكم لله ، وأخشاكم له).[4]

وتأمل توافق وصف حالتي سماع كلٍّ من الوحي للملائكة والوحي للرّسول (ﷺ)ألا يدلّ هذا على عظم الموحى به ومكانته وتأثيره على العالم وكل ما فيه لا سيما إذا وقفنا على مثل قول الله تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾،[5] فقد روي عن ابن عباس أنّه قال: يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثِقله، ومن خشية الله .[6] وقوله عزّ في ملكه :﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[7] ففي الكشاف: ولو أن قرآنا سيرت به

1سورة الرّعد الآية : 13 .
2سورة فاطر الآية : 28 .
3عبد الكريم يونس الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج9 ، ص : 858 – 859 .
4صحيح مسلم : باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته ، حديث رقم : (8011) ج2 ، ص : 779 .
5سورة الحشر الآية : 21 .
6محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق : أحمد محمد شاكر ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، ط1 ، 1420 هـ - 2000 م , ج33 ، ص : 301 .
7سورة الرّعد الآية : 31 .

الجبال عن مقارها، وزعزعت عن مضاجعها، أو قطعت به الأرض حتى تتصدع وتتزايل قطعاً، أو كلم به الموتى فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف .. وهذا يعضد ما فسر به قوله: (لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك) من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من القرآن.[1]

أورد القسطلّاني عن هذه العظمة والهيبة وتوافق كلا الوحيين : لما سئل عليه الصلاة والسلام عن كيفية الوحي، وكان من المسائل العويصة التي لا يماط نقاب التعزز عن وجهها لكل أحد، ضرب لها في الشاهد مثلاً بالصوت المتدارك الذي يسمع ولا يفهم منه شيء، تنبيهًا على أن إتيانها يرد على القلب في هيبة الجلال وأبهة الكبرياء ، فتأخذ هيبة الخطاب حين ورودها بمجامع القلب، ويلاقي من ثقل القول ما لا علم له به بالقول مع وجود ذلك، فإذا سرى عنه وجد القول المنزل بيّناً ملقى في الروع واقعاً موقع المسموع، وهذا معنى فيفصم عني وقد وعيت، إلى أن قال: وهذا الضرب من الوحي شبيه بما يوحى إلى الملائكة على ما جاء في حديث أبي هريرة والنّواس بن سمعان وعبد الله بن مسعود .[2]

1أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط2 ، 1407 هـ ، ج6 ، ص : 539 .
2أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر ، ط7 ، 1323 هـ ، ج1 ، ص : 58 .

فالنبي (صلى الله عليه وسلم) إذا أوحي إليه بصوت مثل صلصلة الجرس كان تشبيهًا بالوحي الذي يوحى إلى الملائكة، فيشبه (والله أعلم)أنه في تلك الحال كان يكرم بإدنائه من طباع الملائكة، وتمثيله من بعض الوجوه بهم).[1]

ثقل القول وشدّة الوحي الدلالات والتّجلّيات:

أورد الطبري عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا﴾[2], ثقيل والله فرائضه وحدوده. وقال آخرون: بل عني بذلك أن القول عينه ثقيل محمله. وفي ذلك يقول: حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم)كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها،[3] فما تستطيع أن تتحرّك حتى يسرَّى عنه)،[4]

وروى أيضاً عن ابن زيد، قال : هو والله ثقيل مبارك .. كما ثقل في الدنيا ثَقُل في الموازين يوم القيامة . ورجح أنّ أولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله وصفه بأنه قول ثقيل، فهو كما وصفه به، ثقيل محمله، ثقيل العمل بحدوده وفرائضه.[5]

وفي تفسير ابن كثير: ثقيل وقت نزوله؛ من عظمته. كما قال زيد بن ثابت: أنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي، وفي المسند: عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه

1أبو القاسم المقدسي - شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى - ج1 ، ص : 80 .
2سورة المزمّل ألآية : 5 .
3جران البعير: مقدم عنقه من مذبحه . مقاييس اللغة ، 447/1 .
4المستدرك على الصّحيحين : تفسير سورة المزمّل ، حديث رقم (3865) ، ج2 ، ص : 549 . وفيه عن عائشة رضي الله عنها .
5الطبري – جامع البيان في تأويل القرآن – ج23 ، ص : 681 – 682 .

وسلم): (أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض)،[1] ولقد مرّ بنا حديث الحارث بن هشام حول هذا المعنى وغيرها من الأحاديث ممّا يؤكّد معالجة النّبيّ نزول الوحي عليه.

فعلى رأي جماعة من المفسرين – كما مرّ بنا – وفيما نقل ابن عطية سماه ثَقِيلًا : لما كان يحل في رسول الله من ثقل الجسم حتى أنه كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذه أن ترض فخذ زيد بن ثابت (رحمه الله).[2]

وفي البحر المحيط: أنّ: ثقله لما كان يحل بجسمه (صلى الله عليه وسلم)حالة تلقيه الوحي، حتى كانت ناقته تبرك به ذلك الوقت،

وحتى كادت فخذه الكريمة أن ترض فخذ زيد بن ثابت.[3]

وقي التّسهيل: سمي ثقيلاً لما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يلقاه من الشدة عند نزول الوحي عليه، حتى إن جبينه ليتفصّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وقد كان يثقل جسمه عليه ــ الصلاة والسلام ــ بذلك حتى إنه إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به، وأوحي إليه وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض فخذ زيد، والثقل على هذا حقيقة.[4]

1أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري - تفسير القرآن العظيم - تحقيق : سامي بن محمد سلامة - الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط2 ، 1420هـ - 1999 م ، ج8 ، ص : 351 .

2أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ط1 ، 1422 هـ، ج5 ، ص : 387.

3أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي - البحر المحيط في التفسير - تحقيق: صدقي محمد جميل ، الناشر: دار الفكر – بيروت ، ط : 1420 هـ ، ج10 ، ص : 314 .

4أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الغرناطي - التسهيل لعلوم التنزيل - تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي ، الناشر : شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، ط1 ، 1416 هـ ، ج3 ، ص : 433 .

ويرى الزّمخشري: أنّ القول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، خاصة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ لأنّه متحملها بنفسه ومحملها أمته، فهي أثقل عليه وأبهظ[1] له[2]، وعلى هذا يكون ثقله راجعًا إلى ثقل العمل به . وقال الفرّاء : ليس بالخفيف ولا السَّفْساف[3] لأنَّه كلام ربنا تبارك وتعالى.[4]

وقال الرّازي: المختار عندي أن المراد من كونه ثقيلاً عظم قدره وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره، فهو ثقل وثقيل وثاقل،[5] وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، إلى أن قال: ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال : إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً عظيماً، فلا بد من الاستعداد

لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل .

وبعد سوق الثعالبي لمختلف الآراء حول مدلولات الثّقل قال : والصواب عندي أن يقال : أما ثقله باعتبار النبي (صلى الله عليه وسلم)، فهو ما كان يجده (صلى الله عليه وسلم) من الثقل المحسوس وأما ثقله باعتبار سائر الأمة فهو ما ذكر من ثقل المعاني.[6]

1من بهظ ، يقال : بهظني هذا الأمرُ ، أي: ثَقُل عليّ ، وبلغ منّي مشقته.. العين ، 38/4 .
2الزّمخشري – الكشّاف – ج4 ، ص : 667 – 668 .
3السَّفْسَافُ: الرَّدِيء من كل شيء والأمر الحقِير وكلُ عَمَل دون الإحْكام سَفْسَاف . لسان العرب , 9 / 155 .
4أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء - معاني القرآن - تحقيق : أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر ، ط1 ، ج3 ، ص : 197 .
5أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي فخر الدين الرازي - مفاتيح الغيب – الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط3 ، - 1420 هـ ، ج30 ، ص : 683 .
6أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي - الجواهر الحسان في تفسير القرآن - تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط1 ، 1418 هـ ، ج5 ، ص : 502 .

يقول ابن عاشور :والثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيراً على الرسول الأمي تنوء الطاقة عن تلقيه . وأشعر قوله : ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول (صلى الله عليه وسلم) لقوله : (سنلقي عليك) وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقيل صعب تلقيه ممن أنزل عليه.[1]

ولقد أورد الطنطاوي حول معنى الثّقل أقوال كثيرة منها: الثقيل في وزنه وفي ميزان الحق، وفي أثره في القلوب، وفيما اشتمل عليه من تكاليف، وأنّه كلام عظيم جليل ذو خطر وعظمة، لأنه كلام رب العالمين، وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل. أو هو ثقيل لما فيه من التكاليف، والوعد والوعيد، والحلال والحرام، والحدود والأحكام ... وقيل: ثقيل على المنافقين، لأنه يهتك أسرارهم. وقيل: ثقيل بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه ... وإنّ وصف القرآن بالثقل وصف حقيقي، لما ثبت من ثقله على النبي (صلى الله عليه وسلم) وقت نزوله عليه ..وهذا لا يمنع أن ثقله يشمل ما اندرج فيه من علوم نافعة، ومن هدايات سامية، ومن أحكام حكيمة، ومن آداب قويمة، ومن تكاليف جليلة الشأن.[2]

1محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور - التحرير والتنوير - الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر : 1984 هـ ، ج29 ، ص : 261 .
2محمد سيد طنطاوي - التفسير الوسيط للقرآن الكريم - الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، ط1 ، تاريخ النّشر 1998م ، ج15 ، ص : 156 – 157 .

ومن الأدلّة على ذلك الثقل حديث ابن عباس الّذي قال فيه : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم)يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرّك شفتيه)،[1] فقيل إنّ سبب الشدة هيبة الملك وما جاء به وثقل الوحي كما في الآية. والمعالجة : المحاولة للشيء والمشقة في تحصيله .. فكان يعرف ذلك منه من رآه لما يظهر على وجهه وبدنه من أثره،[2] .فقد جاء عن عمر بن الخطاب :(كان إذا نزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)الوحي يسمع عند وجهه دوي كدويَ النحل ..)،[3]والدوي صوت لا يفهم منه شيء وهذا الصوت هو صوت الوحي، ولا يفهم الحاضرون من صوته شيئًا، فكانوا يسمعون من جانب وجهه وجهته صوتاً خفياً كان يؤثر فيهم وينكشف لهم انكشافاً غير تام، فصاروا كمن يسمع دوي صوت ولا يفهمونه.[4]

وعن القاضي عياض: (يعالج من التنزيل شدة) : أي يلاقى ذلك ويصارعه .. والشدة هنا لعظم ما يلاقيه من هيبة الملك وما يأخذ عنه، كما جاء عن الملائكة،[5]

و"شدة" بالنصب مفعول "يعالج". ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً له، أي يعالج معالجة شديدة ،فعلى هذا يحتاج إلى شيئين: أحدهما: تقدير المفعول به لـــ"يعالج". والثاني : تأويل الشدة بالشديدة ، وتقدير الموصوف لها.[1]

1صحيح البخاري : باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ، رقم الحديث (5) ج1 ، ص : 8 .
2النّووي - شرح صحيح مسلم – ج4 ، ص : 166 .
3مسند الإمام أحمد بن حنبل : مسند عمر بن الخطاب ، حديث رقم (223) ج1 ، ص : 305 .
4علي بن محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1422هـ - 2002م ، ج5 ، ص : 1739 .
5عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي – إكمال المُعلم بفوائد مسلم – تحقيق : الدكتور يحْيَى إسْمَاعِيل ،الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – مصر ، ط1 ، 1419 هـ - 1998 م ، ج3 ، ص:360.

ولا شكّ أنّ هذه النّصوص وأقوال كبار المفسرين لممّا يؤكّد ما للقرآن من ثقل حقيقي يعتري النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) بسببه المشقّة الشّديدة معالجاً نزول ذلك القول المهيب عليه، ولكن لسائل أن يسال ما الانعكاسات والمغزى لذلك كله، مع إمكانيّة تنزّل هذا القرآن على قلب النّبيّ من غير أن يعتريه شيء ممّا كان يعتريه.

علل العلماء ذلك ببعض التعليلات الّتي تقدّمت وذكروا لذلك بعض الحكم، فمما قالوه أيضًا ما جاء في معرض الحديث عن: (صلصلة الجرس) في حديث الحارث ولفظة (صلاصل) في حديث ابن عمرو مفاده : أنّ المراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يبين له أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد. وقيل: هو صوت خفق أجنحة الملك، والحكمة في تقدمه أن يفرغ سمعه للوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره . وفي الصحيح أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه وقيل: إنّه إنّما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد وتهديد.[2]

وفي فتح الباري : أنّ الحكمة في ذلك أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره .. وقال شيخ الإسلام البلقيني سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به .. وإنما كان شديدًا عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لما سم .. وقيل : فائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات[3]

1محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلّوي - النسائي ذخيرة العقبى في شرح المجتبى – الناشر : دار المعراج الدولية للنشر ودار آل بروم للنشر والتوزيع ، ج13 ، ص : 134 .
2السّيوطي – الإتقان – ج1 ، ص : 160 .
3ابن حجر العسقلاني – فتح الباري – ج1 ، ص : 20 .

وكان سبب ضرب النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) للوحي بالمثل المذكور أنّه (صلى الله عليه وسلم) لاعتنائه بالبلاغة ومكاشفته للعلوم الغيبية كان يوفر على الأمة حصتها بقدر استعدادها، فيصوغ للسّامع من عالم الشهادة ليعرّفه بما لم يشاهده في عالم الغيب، لذا ضرب مثل هذا المثل هنا .[1]

وفي حديث عائشة المتقدم: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً): جاء عن أبي شامة : أنّ هذا العرق الذي كان يغشاه (صلى الله عليه وسلم) كما في هذا الحديث، واحمرار الوجه والغطيط المذكورين في حديث يعلى بن أمية ، وثقله على الراحلة وعلى فخذ زيد بن ثابت كما ورد في حديثين آخرين، إنما كان لثقل الوحي عليه كما أخبره سبحانه في ابتداء أمره بقوله : ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾، وذلك لضعف القوة البشرية عن تحمل مثل ذلك الوارد العظيم من ذلك الجناب الجليل، وللوجل من توقع تقصير فيما يخاطب به من قول أو فعل.[2]

ولقد أكّد هذا المعنى الخطابي حيث قال: إن الوحي كان إذا ورد عليه (صلى الله عليه وسلم) تصعَّده، له مشقة، ويغشاه كرب؛ وذلك لثقل ما يلقى عليه من القول وشدة ما يأخذ به نفسه من جمعه في قلبه وحسن وعيه وحفظه، فيعتريه لذلك حال كحال المحموم، وهو معنى من أنه كان يأخذه عند الوحي الرُّحَضاء؛[3] ولذلك كان يتفصد جبينه، وبيان هذا في قوله عز وجل : ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ .. وجملة الأمر فيما كان يناله من الكرب عند نزول

1 . أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفي - عمدة القاري شرح صحيح البخاري- الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ج1 ، ص : 44 .
2شهاب الدّين المقدسي - شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى – ص : 37 -74 .
3الرحضاء: الحمى بعرق: المحكم والمحيط الأعظم ، 136/3 .

الوحي هي شدة الامتحان له ليبلو صبره ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة ، وحسن الاضطلاع للنهوض به .[1]

وإذا ما استصحبنا أنّه(صلى الله عليه وسلم) قد أنذر وخوف بما ترتاع له النفس، ويعظم به وجل القلوب في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾،[2].. فإنّه يحق لمن هذا سبيله من عظم الشأن أن يستعد له بأشد ما يكون من الاحتفال، وأن يستفرغ له واسع النفوس، ويبلغ به غاية الاجتهاد وأن يرى كل ما يلقاه صاحبه من تعب ومشقة جللًا دونه.[3]

وتأمّل ما جاء في حديث أم المؤمنين من المؤكدات: ف"واو القسم"، أكدت به عائشة (رضي الله عنها)ما قاله (صلى الله عليه وسلم) من قوله وهو أشده علي و"لام التأكيد" و"قد" التي وضعها للتحقيق في مثل هذا الموضع ، كما في نحو قوله تعالى : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ،[4] وذلك لأن مرادها الإشارة إلى كثرة معاناته (صلى الله عليه وسلم) التعب والكرب عند نزول الوحي، وذلك لأنه (صلى الله عليه وسلم)كان إذا ورد عليه الوحي يجد له مشقة ، ويغشاه الكرب لثقل ما يلقى عليه ، بنص قوله : ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾؛ ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم كما روي أنه كان يأخذه عند الوحي الرحضاء, أي: البهر[5] والعرق من الشدة، – وأكثر ما يسمى به عرق الحمى– ولذلك كان جبينه يتفصد عرقاً ؛ وإنما كان ذلك ليبلو صبره ، ويحسن تأديبه، فيرتاض

1أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي - أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) – تحقيق : د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود ، الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي) ، ط1 ، 1409 هـ - 1988 م ، ج1 ، ص :121 - 122 .
2سورة الحاقة : الآيات : 44 – 45 .
3الخطابي - أعلام الحديث - ، ج1 ص : 124 .
4سورة الشّمس : الآية : (9) .
5البهر : بالضم تتابع النفس : مختار الصّحاح ، 41/1 .

لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة، وقد ذكر البخاري في حديث يعلى بن أمية : (فأدخل رأسه فإذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) محمر الوجه وهو يغط ثم سرى عنه)،[1] ومنه في حديث عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) قال: (كان نبي الله عليه وسلم إذا أنزل عليه كرب لذلك وتربد وجهه)،[2] وفي حديث الإفك قالت عائشة (رضي الله) عنها : (فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه).[3]

وانظر ما جاء في جزئيّة (يتفصّد عرقاً) من تشبيه الجبين بالعرق لقصد المبالغة في كثرة العرق، ولذلك وقع "عرقًا" تمييزاً؛ لأنّه توضيح بعد إبهام وتفصيل بعد إجمال، فإنّ باب التفعل أصله وضع للمبالغة والتشديد.[4]

قال القسطلاني في : (وهو يغط) من حديث يعلى : من الغطيط وهو صوت النفس المتردد من النائم من شدة ثقل الوحي .. (ثم سري عنه) عليه الصلاة والسلام أي : كشف عنه ما يتغشاه من ثقل الوحي.[5]

ولك أن تتأمّل كلام الرافعي في: (وهو يغط) قال: أي: يردد نفسه من شدة ثقل الوحي . معلّلاً ما يعتريه من تلك الحالة وقت نزول الوحي عليه : بأنّ هذه كلها أحوال تصف عمل الدماغ بكل ما فيه من جهد القوى العصبية؛ ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها ويتركها لوعي الروح وحدها، لا يشاركها في هذا الوعي

1صحيح البخاري : باب غسل الخلوق ثلاث مرات من الثياب ، حديث رقم (1536) ، ج3 ، ص : 136 .
2صحيح مسلم : باب عرق النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، حديث رقم (88) ، ج4 ، ص 1817 .
3صحيح ابن حبّان : ذكر إنزال الله (جل وعلا)الآي في براءة عائشة(رضي الله تعالى عنها)عما قذفت به ، حديث رقم (7099) ج16 ، ص : 13 .
4انظر : الغيتابى الحنفي - عمدة القاري شرح صحيح البخاري- ج1 ، ص : 43 .
5القسطلاني - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – ج3 ، ص : 105 .

فكر ولا هاجس، ولا يتصل به شيء من حياة الحي؛ فيتحقق للنبي (صلى الله عليه وسلم)وجود آخر غير وجوده المحدود بجسمه وطباعه ودنياه ؛ ويخرج بوعيه من هذه الجاذبية الأرضية إلى ما وراء حدود الطبيعة من قوى الغيب؛ وبذلك يتلقى عن روح الكون، ثم يفصم عنه وقد وعى ما أوحي إليه، وما وصفه زيد بن ثابت (رضي الله عنه) من أن فخذه كادت ترض برهان قاطع على أن روحه(صلى الله عليه وسلم)تتسرح من جسمه ساعة الوحي فيثقل الجسم؛ لأنه إنما يخف بالروح وتبقى وظائف الحياة عاملة أعمالها بعسر وبطء؛ لاتصالها بشعاع من الروح دون الروح بجملتها .. إلى أن قال: وإنّ تلك التهيئة الإلهية لذلك الجهاز العصبي لها أثرها العظيم في فن بلاغته (صلى الله عليه وسلم) وبها امتاز عن كل بلغاء الدنيا.[1]

وأورد النووي في حديث عبادة معنى (كرب لذلك وتربد وجهه) هو بضم الكاف وكسر الراء وتربد وجهه) أي علته غبرة والربد تغير البياض إلى السواد وإنما حصل له ذلك لعظم موقع الوحي.[2]

وقيل إنه كان لشدة اهتمامه بالوحي كمن أخذه غم أي لسبب مبناه أو معناه، ولذا قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾،[3] أو لخوف ما عسى يتضمنه الوحي من التشديد والوعيد لذلك .. ويحتمل أنه كان يهتم بأمر الوحي أشد الاهتمام، ويهاب مما يطالب به من حقوق العبودية والقيام بشكر المنعم، ويخشى على عصاة الأمة أن ينالهم من الله خزي ونكال، فيأخذه الغم

1مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعي - السموّ الرّوحيّ الأعظم والجمال الفنيّ في البلاغة – تحقيق : أبو عبد الرحمن البحيري وائل بن حافظ بن خلف ، الناشر: دار البشير للثقافة والعلوم ، ط1 ، ص : 57 – 58 .
2أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط2 ، 1392ه ، ج11 ، ص : 190 .
3سورة القيامة : الآيات : (16 ، 17) .

الذي يأخذ بالنفس حتى يعلم ما يوحى إليه، ويحتمل أن المراد منه كرب الوحي وشدته، فإن الأصل في الكرب الشدة.[1]

وإذا ثبت أنّ من أسباب ثقل القرآن عليه الارتياض لاحتمال ما كلف به صلى الله عليه وسلم من أعباء النبوة، وحسن الاضطلاع للنهوض بذلك، وشدّة حرصه على ما يطالب به من حقوق العبودية والقيام بشكر المنعم، لا شكّ في أنّ ذلك كلّه قد أوجد تجلّيات في محيط ذلكم المجتمع القرآنيّ، فبدءًا بشخص الرّسول مروراً على أفراد الصّحابة نجد ذلك التّأثير الإيجابي على تعاطي الكلّ في التّطبيق العملي لما جاء به ذلك القرآن، ممّا جعل أمّ المؤمنين ألصق النّاس بالرّسول (صلى الله عليه وسلم) تصفه عندما سئلت عنه بأنّه: (كان خلقه القرآن) .[2] كناية عن تأثّره (صلى الله عليه وسلم) بكل ما جاء في القرآن.

ولقد أجاد الطيبي معلقًا على وصف عائشة: أنّ فيه سراً كبيراً غامضاً، وذلك أن النفوس مجبولة على طبائع وغرائز من البهيمية، والسبعية، والشيطنة، والله تعالى بعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان منه صلوات الله عليه؛ لما جاء في سورة الشّرح، ولحديث انشراح الصدر ، وبعد هذا النزع بقيت للنفس الزكية النبوية بقايا صفات البشرية رحمة للخلق، فاستمدت البقايا من الصفات، لظهورها فيه صلوات الله عليه تنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها تأديباً من الله ورحمة له خاصة، وللأمة عامة، موزعاً نزول الآيات على الأيام والأوقات عند ظهور الصفات . فعندما تحركت النفس الشريفة عند كسر رباعيته وقال:

1علي الهروي القاري - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - ج9 ، ص : 3737 .
2مسند الإمام أحمد : مسند أم المدينة عائشة بنت الصّديق رضي الله عنها حديث رقم (24601) ، ج41 ، ص : 148 .

(كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم) ،[1] أنزل الله تعالى : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾،[2] فاكتسى القلب لباس الاصطبار، تأديباً لنفوس الأمة وتهذيباً ورحمة.[3]

ومن تلك التّجلّيات مضاعفة جوده (صلى الله عليه وسلم) حينما يلاقي جبريل عليه السلام في رمضان لمدارسته القرآن، فعن ابن عباس قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أجود بالخير من الريح المرسلة).[4]"جملة يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن" تبين أن جوده الذي في رمضان الذي فضل على جوده في غيره إنما كان بأمرين أحدهما بكونه في رمضان والآخر بملاقاته جبريل عليه الصلاة والسلام ومدارسته معه القرآن.[5]

يقول القسطلاني: يحتمل أن يكون زيادة الجود بمجرد لقاء جبريل ومجالسته، ويحتمل أن يكون بمدارسته إياه القرآن فقد كان القرآن له (صلى الله عليه وسلم)خلقاً .. يسارع إلى ما حث عليه ويمتنع مما زجر عنه .. لكن إضافة آثار ذلك إلى القرآن كما قال ابن المنير آكد من إضافتها إلى جبريل (عليه السلام) بل جبريل إنما تميز بنزوله بالوحي، فالإضافة إلى الحق أولى من الإضافة إلى الخلق لا سيما (والنبي صلى الله عليه وسلم) على المذهب الحق أفضل من جبريل، فما جالس الأفضل إلا المفضول فلا يقاس على مجالسة

1مسند الإمام أحمد : مسند أنس بن ملك (رضي الله عنه) حديث رقم (12831) ، ج20 ، ص : 213 .
2سورة آل عمران : الأية : 128 .
3شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي - الكاشف عن حقائق السنن - تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، الناشر : مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة – الرياض ، ط1، 1417 هـ - 1997 م ، ج4 ، 1220 .
4صحيح البخاري : باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ، حديث رقم (6) ، ج1 ، ص : 8 .
5الغيتابي الحنفي – عمدة القاريشرح صحيح البخاري - ج1 ، ص : 76 .

الآحاد للعلماء .. فمن فوائد هذا الحديث: أن مداومة التلاوة توجب زيادة الخير واستحباب تكثير العبادة في أواخر العمر.[1]

أمّا إذا ما أردنا الحديث عن تأثّر الصّحابة بالقرآن وتجلّياته عليهم فإنّ كتب السنّة والسّيرة تزخر بذلك بل إنّ تأثير القرآن كما ثبت بالنّصوص المتواترة قد امتدّ وطغى حتّى على الخصوم المناوئين وأخذ بألبابهم بل إنّ ذاك التّأثير كان سببًا لهداية كثير من الصّحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

ولئن دلّ هذا لعمري فإنّما يدلّ على أنّ ثقل القرآن في انعكاساته وتجلياته لا حدود له ولا يستطيع أحد الإحاطة بكنهه إلا من أنزله سبحانه جل في علاه .

1القسطلاني – إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري – ج3 ، ص : 352 – 353 .

الخاتمة:

أحمد الله سبحانه وتعالى أن وفّقني وأعانني للوقوف من خلال هذه الدّراسة على جانب من جوانب عظمة هذا الكتاب الّذي جعله الله – كرماً منه وفضلاً – دستوراً لهذه الأمّة المنتقاة، فجعلها الله به أمّةً وسطًا تستوجب إذا ما تمسّكت به تلك الخيريّة والأسبقيّة لمن سبقها من الأمم، والعزّة والرّيادة والقيادة لكلّ من سواها في كل مجال . حيث خلصت الدّراسة إلى نتائج منها :

1 –أنّ القرآن ثقيل في مبناه وذو قدر جليل فيما يحويه من أحكام وتوجيهات.

2– أنّ القرآن تتجلّى عظمته في كل عنصر من عناصره التي تتجدّد كلما بحث فيه باحث.

3– أنّ الملقي للقرآن من الملائكة والمتلقّي له من البشر ، ما كان لهما تحمّل القرآن لولا أن هيّأهما الله لذلك .

4 – وأنّ العالم العلوي يتفاعل ويحتفي بما في هذا القرآن من عظم ومكانة.

5 – وأنّ عظمته استوجبت على كل من أراد أن يعيش حياةً كريمة في الدّارين أن يأخذ به .

6– لا يعد ما كان يعتري النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) من تغيرات عند نزول الوحي حالة مرضيّة، أو من قبيل حالات السّبات .

وجاءت توصيّات الباحث على النّحو التّالي :

1 – ضرورة التعامل مع نصوص الوحي بفهم وعمق أخذاً من التّراث الإسلامي النّقي الصّحيح .

2 – أهمّية تناول الباحثين في مجال دراسات علوم الوحي للمشكلات الّتي يعيشها المجتمع لمعالجتها من خلال نصوص الوحي، لثبوت نجاعتها .

3 – التّأسّي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الميامين في الاعتصام والاستمساك بالقرآن وجعله هاديًا في كلّ قضيّة .

قائمة المصادر والمراجع :

أوّلاً : القرآن الكريم

1- ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك – شرح صحيح البخاري لابن بطال – تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض ، ط2 ، 1423هـ .

2 – أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري – تفسير القرآن العظيم – تحقيق : سامي بن محمد سلامة – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط2 ، 1420هـ – 1999 م ..

3 – أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي – شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى – تحقيق: جمال عزون، الناشر: مكتبة العمرين العلمية– الشارقة/ الإمارات، ط ، 1420هـ /1999م.

4 – أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل– الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، ط2، 1407 هـ 539 .

5 – أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي – المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط2 ، 1392ه.

6- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي – الجواهر الحسان في تفسير القرآن – تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1418 هـ .

7- أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي – أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) – تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، ط1، 1409 هـ – 1988 م .

8- أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي – البرهان في علوم القرآن – تحقيق : محمد أبو

9- الفضل إبراهيم, الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه , ط1، 1376 هـ – 1957 م .

10- أبو عبد الله غانم بن قدوري بن حمد بن صالح ، آل موسى فَرَج الناصري التكريتي – محاضرات في علوم القرآن – الناشر: دار عمار – عمان , ط1، 1423 هـ – 2003 م , ص : 22 ، 26 .

11- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي فخر الدين الرازي – مفاتيح الغيب – الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3 – 1420 هـ .

12- أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفي – عمدة القاري شرح صحيح البخاري– الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

13- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - فتح الباري شرح صحيح البخاري - الناشر: دار المعرفة – بيروت 1376ه .

14- أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني - إرشاد الساري لشرحصحيحالبخاري–الناشرالمطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط7، 1323هـ بيروت، 1379ه .

15- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي - الكاشف عن حقائق السنن - تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي، الناشر : مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة – الرياض، ط1، 1417 هـ - 1997 م .

16- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي - الإتقان في علوم القرآن - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب , ط : 1394هـ - 1974 م .

17- عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - تحقيق : خليل شحادة , الناشر : دار الفكر، بيروت , ط2 1408 هـ - 1988م .

18- عبد الكريم يونس الخطيب - التفسير القرآني للقرآن – الناشر : دار الفكر العربي – القاهرة .

19- علي بن محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - الناشر: دار الفكر، بيروت– لبنان، ط1، 1422هـ - 2002م .

20- عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي – إكمال المُعلم بفوائد مسلم–تحقيق: الدكتور يحْيَى سِمَاعِيل،الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – مصر ، ط1، 1419 هـ – 1998م .

21- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي – دراسات في علوم القرآن الكريم – الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط12 ، 1424هـ .

22- مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي – الظاهرة القرآنية – تحقيق (إشراف ندوة مالك بن نبي) الناشر: دار الفكر – دمشق سورية , ط4، 1420 هـ =2000م .

23- محمّد الخضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي – كوثر المعاني الدَرارِي في كَشفِ خبايا صحِيح البخاري – الناشر : مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415 هـ – 1995 م 197 .

24- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير – الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر : 1984 .

25- محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي – فيض الباري على صحيح البخاري – تحقيق : محمد بدر عالم الميرتهي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط1 ، 1426 هـ – 2005 م 95 .

26- محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)،ط1،1422ه.ـ

27- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري – جامع البيان في تأويل القرآن – تحقيق : أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ – 2000م .

28- محمد بن عبد الله دراز – النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم – الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع ط : 1426هـ– 2005م .

29- محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي – ذخيرة العقبى في شرح المجتبى– الناشر : دار المعراج الدولية للنشر ودار آل بروم للنشر والتوزيع.

30- محمد سيد طنطاوي – التفسير الوسيط للقرآن الكريم – الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة.

31- محمد سيد طنطاوي – التفسير الوسيط للقرآن الكريم – الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، تاريخ النّشر 1998م .

32- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

33- مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعي – السموّ الرّوحيّ الأعظم والجمال الفنيّ في البلاغة – تحقيق : أبو عبد الرحمن البحيري وائل بن حافظ بن خلف، الناشر: دار البشير للثقافة والعلوم ، ط1 .

34- موسى شاهين لاشين – فتح المنعم شرح صحيح مسلم – الناشر: دار الشروق، ط1، 1423 هـ – 2002م.

35- نور الدين محمد عتر الحلبي – علوم القرآن الكريم – الناشر : مطبعة الصباح – دمشق , ط1, 1414 هـ – 1993 م.